

حول الذِّكْرِ في الحج وما يتعلق به

ثم يشتغلون بالأعمال الصالحة ومنها: الذكر ومنها التلبية ومنها القراءة ومنها الدعاء وما أشبه ذلك، يعتبرون قد تلبسوا بأعمال الحج. التلبية: شعار المحرم إذا كان محرماً فإنه يرفع صوته بالتلبية، ولا يزال يلبى حتى يشترع في أسباب التحلل، حتى يبدأ في رمي جمره العقبة، فإن لم يرمِ وذهب إلى المصاف قبل أن يرمي فإنه يقطعها إذا شرع في الطواف. فهكذا من السنة تأكيد هذه التلبية، النبي -صلى الله عليه وسلم- لبي لما أحرم وهو في ذي الحليفة التي هي ميفات أهل المدينة لما صلى الفجر لبي وهو في مكانه، فسمع ذلك ناس فقالوا: إنه لبي وهو في مصلاه. ثم لما ركب ناقته كان حجه على ناقته تسمى القصواء، لما استوى على راحته لبي، ثم سار بعد ذلك حتى صاروا إلى البيداء المكان الواسع فلبى، ولما لبي في البيداء سمعه خلق، فقالوا: إنه لبي لما استوت به ناقته على البيداء، وهذا هو الأشهر؛ وذلك لأنه لما لبي كان الناس عن يمينه مد البصر وعن يساره كذلك وخلفه وقدامه لا يحصيهم إلا الله. يعني قالوا: إنه حج معه نحو مائة وأربعين ألفاً فلما لبي رج الوادي بالتلبية، ولم يزل يلبى وأمر أصحابه أن يلبوا وأن يرفعوا أصواتهم وقال: { أتاني جبريل عليه السلام وأمرني أن أمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإلهال } الذي هو التلبية، وسمي إلهالاً؛ لأنه فيه رفع الصوت رفع الصوت يسمى إلهالاً. ومنه قولهم: استهل الصبي إذا ولد فإنه يصرخ فيكون ذلك استهلالاً، ومنه سمي الهلال؛ لأن الناس إذا راوه استهلوا بالكلام بمعنى: أنهم يرفعون أصواتهم عند رؤيته، فالإلهال هنا: هو رفع الصوت بالتلبية يصوت بها الرجل، أما النساء فانهن يخفين التلبية، يخفينها فلا يلبين إلا بقدر ما تسمع الواحدة رفيقتها إلى جنبها. هذه التلبية إجابة لنداء الرب تعالى الذي أمر به إبراهيم عليه السلام في قوله: { وَأَدْنُ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوَكُّبًا رَجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ } قالوا: إن الله أمر إبراهيم أن يصعد على جبل أبي قبيس ويقول: أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج فحجوا فقال: يا رب وماذا يبلغ صوتي؟ فقال الله: { عليك النداء وعلي الإبلاغ } فالذين يأتون من بلاد بعيدة إذا قربوا من مكة إذا وصلوا إلى المواقيت تهيأوا، تجردوا من ثيابهم المعتادة إذ يكون ذلك مميزة لهم، ولبسوا لباساً خاصاً أقرب إلى لباس الموتى؛ ليتذكروا بذلك أنهم في عبادة. وإذا راهم من راهم علم أنهم في عبادة وفي طاعة؛ فعند ذلك يرفعون أصواتهم، ويقولون: لبيك لبيك؛ إجابة لنداء الله تعالى الذي أمر به نبيه إبراهيم. لبيك، ومعناه إجابة الدعاء، أنت إذا دعاك أبوك، وقال لك مثلاً: يا إبراهيم يا أحمد يا عبد الله تقول: لبيك أي لبيك يا أبت، فنداء الله تعالى أولى بأن تلبى لبيك يا رب، أي أنا مجيب لك، أنا مجيب لدعوتك، وأنا مقيم على طاعتك إقامة مستمرة ليست منقطعة. كانت التلبية قديمة ولكن المشركون كانوا يلبون، ثم أدخلوا في تلبيتهم الشرك، كانوا يلبون بقولهم: لبيك لا شريك لك، ثم إن كبير قبيلة خزاعة لما كانوا مستولين على البيت كبيرهم يقال له عمرو بن لحي بن قعدة بن خندف الخزاعي كان مرة يطوف بالبيت ويقول: لبيك لا شريك لك، فتمثل له إبليس فقال: إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فقالها عمرو بن لحي ولما قالها أخذها العرب منه، فكانوا يشركون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- لما كان بمكة يسمعون يقولون لبيك لا شريك لك فيقول لهم: "قد قد"، أي قفوا عند هذا لا تزيدوا، إن هذا هو الصحيح إن هذا حق إذا قلت: لبيك لا شريك لك قد صدقتم فلا تزيدوا ولا تبطلوا توحيدكم بهذا الشرك. ولما شرعت التلبية أكد النبي -صلى الله عليه وسلم- التوحيد في تلبيته فقرر كلمة لا شريك لك مرتين من باب التأكيد، فتلبية النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك هذه مرة، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، فأكد كلمة لا شريك لك مرتين؛ حتى يعرف المسلمون بأن الله تعالى لا شريك له ويؤكد ذلك أيضاً الذكر. فالذكر كلمة الذكر: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير أكد فيها قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وكذلك أيضاً في حديث عبادة من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، (وحده لا شريك له) تأكيد لـ " لا إله إلا الله "، أي أنه المتوحد وحده، وأنه الذي ليس له شريك، لا شريك له في ملكه ولا شريك له في عبادته؛ فلذلك أصبحت هذه التلبية تلبية خالصة لله، لا شريك لك لبيك، ثم تلبية النبي -صلى الله عليه وسلم- يكررها لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. ولكن يسمع بعض الصحابة يلبون بتلبية أخرى ولا يغير عليهم يفهم، فبعضهم يقول: " لبيك حقا حقا بعيدا ورقا"، وبعضهم يقول: " لبيك وسعديك والخير كله بيدك، والنشر ليس إليك أنا بك وإليك، نحن عبادك الواقدون إليك الراغبون فيما لديك، لبيك إن العيش عيش الآخرة لبيك والرجاء إليك والعمل، هذه كلها لا بأس أن يقولها الحاج؛ وذلك لأن فيها صدق الرغبة. إذا قال: لبيك والرجاء إليك أي: نحن راغبون إليك؛ الرغبة إلى الله تعالى قوة الرجاء كما قال تعالى: { قَائِدًا قَائِمًا وَمَا تَرْجَىٰ قَائِمًا } فنحن عبادك الواقدون إليك الراغبون فيما لديك لبيك، والرجاء إليك والعمل. كذلك أيضاً إذا قلت: " لبيك حقا حقا": أي عقيدة صادقة، وكلمة يقينية حقا حقا بعيدا ورقا، والتعب والتذلل يعني: أننا نفر لك بالعبودية الذي مقتضاها الذل والخضوع والإخبات والخشوع والتواضع والرغبة والتذلل. التذلل حقا: هو التعب والجميع نعترف بأننا عبيد الله أننا عبيد لله، والعبودية هي الذل والخضوع، نحن عبادك الواقدون إليك لبيك حقا حقا بعيدا ورقا، ثم إن هذه التلبية شعار للحاج والمعتمر، إذا أحرم بالعمرة فإنه يكررها، يكررها إلى أن يبدأ في الطواف؛ لأن بدء الطواف بدء في أسباب التحلل، وإذا أحرم بالحج فإنه يكررها حتى يبدأ في الرمي؛ لأن بدءه في الرمي بدء في أسباب التحلل، يكررها كل وقت. ولكن تتأكد في عشرة مواضع كانوا يحفظونها عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان يكررها إذا علا نثرها يعني مكانا مرتفعا في الطريق كعقبة أو نحوها هذا موضع. الموضع الثاني: إذا هبط واديا يعني مكانا منخفضا. الثالث: إذا ركب دابته مثلها السيارة. الرابع: إذا نزل عن سيارته. الخامس: إذا سمع مليا. السادس: إذا تلاقت الرفاق أو الركبان. السابع: إذا صلى مكتوبة. الثامن: إذا أقبل ليل. التاسع: إذا أقبل النهار. العاشر: إذا فعل محظورا ولو ناسيا. فإنه يجدد التلبية في هذه المواضع العشرة. إذا كانوا نازلين هنا فسمعت مليا فإنك تجدد التلبية إذا سمعته، وكذلك إذا صليت إذا انصرف من صلاة مكتوبة ظهرا أو عصرا إلى آخره فإنك تجدد التلبية، أي تلبى ولا يمنع ذلك يقية الإذكار؛ وذلك لأن هذه الأيام أمر الله تعالى فيها بمطلق الذكر. هذه الأيام هي الأيام المعلومات قال الله تعالى: { لِيَسْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } يعني يشكرونه على أن سخر لهم بهيمة الأنعام { فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطَعُوا النَّاسِ الْقَوِيَّةِ } أي أن الله تعالى أنعم عليهم، ثم قال في آخر الآيات: { وَالذِّكْرُ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ } جعلها الله من الشعائر من شعائر الله: { فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِئْتُ جُنُوبَهَا فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطَعُوا الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِ كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لَنْ يَتَّالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَتَّالُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكْتَبُوا اللَّهُ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَيَسِّرَ الْمُحْسِنِينَ } فأخبر تعالى بأنه سخرها..... وعزلها ووبرها وشعرها. وكذلك أيضا تنتفع بجلودها، تنتفع بها أحذية أو قبرا أو فرشا أو ما أشبه ذلك؛ ولذلك قال تعالى: { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِيُعَبِّرَ عَنْ نَفْسِكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعَ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } فهذه الأنعام التي يبسرها وسخرها لنا؛ فلأجل ذلك يقول بعض العلماء: إنه يتأكد على المسلم يتأكد عليه إذا رأى بهيمة الأنعام أن يجدد التكبير؛ لأن الله قال: { وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } إذا رأيت دابة من هذه البهائم فإنك تجدد التكبير الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر والله الحمد. هذا التكبير مشروع في أيام العشر ويسمى تكبيرا مطلقا، يشترع في كل وقت من أول يوم، أو أول ليلة من ليالي العشر، فيشرع أن يكبر الحجاج وغيرهم من أهل البلاد أن يكبروا الله تعالى، وأن يكرروا ذلك التكبير في أسواقهم وبيوتهم ومساجدهم وطرقهم ركباناً ومشاة قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. وكذلك أيضا يكبرونه تكبيرا مطلقا إلى الانتهاء من صلاة العيد، وأما الحجاج فإنهم إذا أحرموا يجعلون معه التلبية يكبرون ويلبون ما داموا محرمين، وهناك التكبير المقيد الذي يكون عقب الصلوات المكتوبة التي تصلى في جماعة يبدأ من صباح يوم عرفة، أي غدا أي الخميس يوم الخميس غدا الذي هو يوم عرفة بعد صلاة الفجر يبدأ التكبير المقيد، الذي يكون عقب كل صلاة هذا بالنسبة إلى غير الحجاج. وأما الحجاج فإنهم منشغلون بالتلبية كلما صلوا صلاة رفعوا أصواتهم بالتلبية ما داموا محرمين، فإذا تحلوا الغالب أنهم يتحللون في يوم العيد في ضحى يوم العيد، ففي ذلك اليوم الذي يوافق يوم الجمعة، أي بعد غد يجعلون بدل التلبية التكبير بعد كل صلاة، ويستمر التكبير المقيد إلى العصر من اليوم الثالث عشر، وهو التكبير الذي أمر الله به وجعله ذكرا في قوله تعالى: { وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ } الثلاثة التي بعد العيد أيام التشريق وأيام منى تسمى الأيام المعدودات. فكلما صلى صلاة فإنه يكبر بعدها الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر والله الحمد، مع أن الله تعالى أمرنا بذكره ذكرا مطلقا في هذه الأيام، وفي هذه المناسك أمر بذلك في قوله تعالى: { لِيَسْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ } هذا ذكر عام. وكذلك أمر به في بعض المشاعر، أو في المشاعر في قوله تعالى: { فَإِذَا أَقْبَضْتُمْ مِنْ عَرَقَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ } فيذكر من ذكر الله تعالى ودعائه واستغفاره ونحو ذلك. ثم بعد الفراغ من المناسك كلها ينشغلون أيضا بالذكر قال الله تعالى: { فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أُشَدِّ ذِكْرًا } وقال { فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الْآخِرَةِ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقَدْ عَدَّتْ النَّارُ } ولذلك يتأكد بعد الانتهاء تكرر هذه الآيات بعد الفراغ من المناسك تكرر هذه الدعوة: { رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقَدْ عَدَّتْ النَّارُ } . وكذلك أيضا يتأكد في المشاعر الذكر، ويتأكد أيضا الاستغفار الذي أمر الله به، ويتأكد أيضا ترك المحرمات التي حرّمها الله مطلقا أو حرّمها على الحاج قال الله تعالى: { فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْتٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ يَغْلَمُهُ اللَّهُ وَتَرَوُودُوا فَإِنَّ حَيْرَ الرَّادِ التَّقْوَىٰ وَالْقَمُونَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَبَسَ عَلَيْكُمْ جُبَايَا أَنْ تَبْتِغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقْبَضْتُمْ مِنْ عَرَقَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَان كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ ثُمَّ أَيْضًا مِنْ حَيْثُ أَقْبَضَ النَّاسُ وَاسْتَعْفَرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ } .